



73

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر

التحليل النفسي للتغريب

10. مواجهة المستقبل

لم يحدث طيلة تاريخ العرب، والذي يعود إلى ثلاثة عشر قرناً مضت منذ اختراقهم للعزلة التي عاشوها في شبه الجزيرة العربية، أن يواجهوا تحدياً يقارن في شدته بتحدي الغرب الحديث. فلأول مرة يتبوعون موقع المدافع ثقافياً لا عسكرياً. فلم يكد الغرب يتصل بالعالم العربي حتى بدأ بدراسة تاريخ العرب ودينهم وأدبهم وكافة الجوانب الأخرى للثقافة العربية. ولم يمض وقت طويل حتى كان المستعربون (أو المستشرقون بحسب التسمية المعتادة) يعلمون عن تلك الجوانب أكثر مما يعلمه أفضل علماء العرب أنفسهم. مما جعل من المحتم على علماء العرب، إن هم أرادوا إجراء بحث علمي رصين حول تاريخهم أو دينهم أو أدبهم، أن يعتمدوا في المقام الأول على قراءة الكتب والدراسات التي كتبها زملاؤهم الغربيون. إن العمل الأكاديمي يفترض به أن يتجاوز حاجز الجنسيات، لكن الكبرياء العربي لم يتمكن من مغالبة شعور الإحساس بالإهانة جراء ذلك الوضع. إن الاعتراف بتفوق الغرب في المجال التكنولوجي وتبني منجزات هذا المجال لم يكن أمراً يتحسس العرب منه: ففي رأي العرب أن الغرب متخصص أصلاً في التنمية التكنولوجية مما لا يمنع من استخدام مخترعاته وأدواته وآلاته؛ لكن أن يتوجب عليهم أن يتعلموا من الغرب القصة الكاملة للأدب العربي والدين الإسلامي والمسيرة الكاملة للتاريخ العربي، وهي مواد كانت تدرّس طيلة قرون في مؤسسات تعليمية عربية مرموقة كالأزهر وغيره من المساجد/المدارس. فكان أمراً صعباً التقبل، ولا عجب مما قام به بعض علماء العرب المعاصرين الذين تصاعدت شكوكهم القومية فاتهموا المستعربين بالعمل لدى وزارات الخارجية الغربية والتزيف والتشويه المتعمد للتاريخ العربي.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

على الرغم من ذلك، توجه العلماء العرب الجادون إلى الدراسات الغربية التي تناولت تاريخ العرب ودينهم وأدبهم وتعلموا منها. ومن الأمور التي استساعوا الاعتراف بها كانت حالة السبات التي دخل بها العرب منذ نهاية العصور الوسطى. وحالة الركود والنعاس الثقافي الذي شنته الغرب. ولا شك في أن مؤرخي العرب وكتابهم ونقادهم الاجتماعيين هضموا فكرة الركود العربي على نحو جيد. بل جيد جدا في الواقع إلى درجة أصبحوا معها أكثر انتقادا بكثير لمواطن الخلل عند العرب مقارنة بكل ما كتبه المستعربون الأجانب. وفي الماضي أيضا، عرف عن العرب ولعهم بانتقاد العرب أنفسهم، لكن الانتقادات الشديدة كانت توجه دوما إلى العرب الآخرين، أي: إلى مجموعة أخرى لا ينتمي إليها المنتقد. لكن تأثير العرض الغربي لمسألة الركود العربي أدى إلى إدخال تطورات على انتقاد العرب للعرب تمثلت في أمرين: كان التطور الأول هو تعميم النقد فلم يعد يوجه ضد مجموعة عربية منافسة بعينها، بل ضد العرب أجمعين. أما التطور الثاني فاتجه نحو الداخل ليشمل المجموعة نفسها التي ينتمي المنتقد إليها، بل إنه تمادى ليصل إلى أقرب الدوائر إليه لتصيبها سهام الانتقاد. وهذا النقد الذاتي، مع الإحساس الوطني، كان أهم التطورات الفكرية التي حدثت في العالم العربي تحت تأثير الغرب.

من الطبيعي أن النقد الذاتي العربي لم ولا يتوجه نحو فشل الماضي كما هو تجاه مواطن الضعف في الحاضر. فما يزعم أكثر بكثير من الانحطاط الذي بدأ قبل ست أو سبع قرون، والذي أعدت له أسباب خارجية جاهزة، هو الاعتراف بأن العرب، وبعد أكثر من قرن ونصف على الاتصال بالغرب، لا يزالون خلف الغرب ثقافيا واقتصاديا وفي العديد من المجالات الأخرى التي لم يجادلوا في أهميتها (الغربية أصلا). وتتصاعد أصوات العرب متسائلة بالبحاح: لماذا لا يزال معظمنا غير متعلمين، وضعفاء اقتصاديا، ومتخلفين تكنولوجيا، ومعرضين للأمراض والفقرة؟ وفي ضوء العلاقات السياسية وموازن القوى بين العرب والغرب، والميول الخاصة للعقل العربي، يأتي الجواب حاذقا ومصطنعا: إن الغرب، ولما له من دوافع أنانية

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

شريرة. قد قمع العرب. وحال بينهم وبين اكتساب المهارات الضرورية التي يمتلكها. وحجب عنهم مهاراته التقنية. أو إنجازاته الفكرية. أو كليهما.

مهما كان تفسير العرب الخاص لتخلفهم الثقافي المستمر بالمقارنة مع الغرب. وسواء أكانوا يفضلون الميل إلى الغرب أم لا. فإن العقل العربي ينبغي عليه. وهكذا فعل. أن يعترف بامتلاك الغرب لثقافة تفوق جزئياً. في أقل التقادير. على الثقافة التي ورثها العرب عن أسلافهم واحتفوا بها طيلة قرون. ومهما كان رأي العرب حول مواقف الغرب ونواياه تجاههم. وسواء اعتبروه عفریتا كريماً أم غولاً مخيفاً. فإن الأشياء التي بحوزته والتي يمكن للعرب اقتناؤها تعتبر عصية على المقاومة. ومع ذلك يوجد عدد كبير من العرب الذين يفكرون ملياً ويخافون جداً من أن تكون الروح العربية هي الثمن الذي يتوجب دفعه لقاء هدايا الغرب. وهم يتخوفون من المفهوم القائل بأن النتيجة النهائية لمجمل الاضطراب الذي تؤدي إليه عملية التحديث يتمثل في الاستيلاء على الدول العربية واحدة تلو الأخرى لتكوين سلسلة من الدول التي لا تختلف عن الدول الغربية إلا في الاحتفاظ باللغة العربية كلغة رسمية ونسخة ضعيفة علمانية من الإسلام كدين رسمي. وبينما لا يستطيع الغربيون الحصول على فهم تام لما تحدثه هذه النظرة من نفور وكره في العقل العربي المسلم المحافظ. فإن العديد من هؤلاء العرب يشعر بفداحة السعر الذي ينبغي دفعه من أجل القضاء على العيوب الاجتماعية (أو التخفيف منها). وتقديم وسائل الرفاهية الغربية.

ولكن سبق السيف العذل: فهدايا عفریت الغرب تجد طريقها شيئاً فشيئاً نحو أقاصي العالم العربي. والمقاومة تنحسر. كما قامت بتغيير نظام الحياة التقليدية لدى العرب دون أن يلاحظ ذلك في البداية. لكن التغيير بدأ يطفو على السطح تدريجياً. والأهم من ذلك أنها غيرت العقل العربي؛ فبعد أن كان «القديم» مرادفاً «للجيد». و«الجديد» مرادفاً «للسيئ» وحتى «الشرير». أعطى التقييم الجديد صورة مصغرة لطريقة حياة وحالة عقل. وحيثما دخل الراديو والمضخة ذات المحرك والتلقيح ضد الأمراض كان أكثر العقول ارتباطاً

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

بالتقاليد مجبرا على إدخال تعديلات تبتعد عن الأسئلة القديمة: «فالجديد» أصبح الآن مرادفا «للجيد» وأفضل من «القديم». وهكذا بدأت عملية التغريب.

إن المشكلة التي يواجهها العقل العربي في صراعه مع قضايا التغريب لا تتعلق بما إذا كان عليه أن يرحب به أو يتقبله؛ وإنما كانت من اللحظة الأولى (عندما وطأ نابليون أرض مصر) تتعلق بجانب نظري تقررت نتيجته العملية حين أدركه العقل العربي منذ وقت طويل. إن سلسلة الظروف التاريخية أظهرت أن عملية التغريب، وفي كل بقاع العالم التي اخترقها الغرب، تتواصل بسرعة، ولا محالة من تواصلها في الواقع. كما أظهرت أن مقاومة عملية التغريب فاشلة، وفي الحقيقة، غير ممكنة: أما إبطاء عملية التغريب، أو إعاقته، فهو أمر ممكن. لكن ذلك لا يعني إمكانية منعها من الانتشار.

إن القضية التي لا تزال قيد البحث في العقل العربي مختلفة تماما عما سبق، وهي تتكون من عدد من الأسئلة المترابطة: من أمثال: هل ينبغي على الدول العربية أن تشجع وتسهل تبني المنهج الرأسمالي أم الاشتراكي أم الشيوعي من بين الأنظمة الاقتصادية الغربية؟ وشبه ذلك في المجال السياسي: هل ينبغي عليها أن تسعى لصياغة أنظمتها السياسية الناشئة وفق نمط ديمقراطي أم دكتاتوري يميني أم شيوعي يساري ذي حزب واحد؟ وما هي الجوانب الخاصة التي تستحق النضال من أجلها في الثقافة العربية التقليدية؟ يلي ذلك: بأية طريقة يمكن تعديل الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية المستمدة من الغرب بإعطائها شخصية عربية؟

يمكن القول بشكل مختصر، وبملاحظة حتمية تغريب العالم العربي، أن خيارات جيدة كثيرة لا تزال متوفرة، ومن خلال الاختيار من بينها تتحدد البنية المستقبلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للعالم العربي. والشكل المستقبلي للعقل العربي.